

الرسالة التاسعة

السياق الواقعي والسياق المادي

في هذه الرسالة سوف أركز ليس فقط على العلاقة بين السياقات الواقعية المادية والنظرية ، بل أيضاً على الطريقة التي نتبعها في ممارسة كل منهما . إن الفكرة أو أحد الأفكار الرئيسية التي تدفعني لمناقشة هذا الموضوع الحرص على التأكيد بأهمية هذه العلاقة في كل ما نفعله في مواقفنا اليومية وخبرتنا التاريخية والاجتماعية بأننا نتعامل يومياً مع العلاقات بين الأشياء ، والموضوعات ، وموقع الكلمات في جمل التعبير ، وبين الكلمات نفسها في سياق تركيب النص ، وبين الناس كيف يتجمعون من خلال العنف أو الحب أو اللامبالاة أو الرفض ، وبين التمايز العلني والخفي لدى المعلمين والطلاب ، وبين الذوات التي تفكر ، والموضوعات التي يتم معرفتها . ودعوني أوضح أنه ليس من مقاصدي أن أناقش كل العلاقات التي نمارسها والتي نشترك فيها يومياً ، ولكنني سأناقش العلاقات التي تحدث بين السياق الواقعي والسياق النظري في علاقة كل منهما بالآخر .

وأعتقد أن أحد التأكيدات التي يمكن طرحها هنا هو الشرط الأساسي للحياة ، وهو شرط العلاقة في كل ما في عالمي الأحياء وغير الأحياء ، بين الفرد والعالم من حوله ، وعلاقة الفرد مع نفسه . وعلى هذا النحو ، فنحن المخلوقات الوحيدة القادرة على أن نكون ذاتاً وموضوعاً في الوقت ذاته ، فاعلين ومفعولين في العلاقات التي ننسجها مع بعضنا ، ومع التاريخ الذي نصنعه ، والذي يصنعنا ، ويعاود صنعنا . وبيننا وبين العالم علاقات قد تكون نقدية أو ساذجة أو سحرية في مدركاتها . ونحن على وعى بها بدرجة لا تتحقق عند أي من المخلوقات الأخرى في علاقتها بالعالم . وبمجرد أن نعرف أننا قد عشنا وعرفنا ذلك وبالتالي نعرف الكثير ، فنحن الذين نفكر ونمارس

الحياة بشكل أفضل . لذلك كلما نفكر ونعمل بهذا الشكل نقتنع مثلاً بأنه من المستحيل أن ندرس أى مضمون لمحتوى علمى ، دون أن نعرف كيف يفكر التلاميذ فى حياتهم اليومية ، وماذا تعلموا خارج المدرسة ، حتى نستطيع بذلك تطوير ما لديهم، فضلاً عن تعليمهم ما لم يعرفوه من قبل . هذا إلى جانب إلمامنا بماذا يعرفون عن المدرسة ؛ حتى نستطيع أن نساعدهم على معرفة أفضل بها .

ولا يمكن إغفال الشروط والأحوال المادية السيئة التى يعانى منها طلاب المدارس الهامشية الفقيرة فى المدن من سوء المعيشة، وضعف التغذية، وعدم توفر مواد القراءة وظروف الاستذكار ، وما يلاقونه فى بيئاتهم من صنوف العنف والموت . وكل هذه الأمور لا تحظى بالاهتمام المفروض سواء من المدرسة الأساسية من أول سنة يدرس فيها الأطفال ، أو حتى فى معاهد إعداد المعلمين .. وكل هذه الأمور لها دور خطير فى حياة الأطفال من أمثال (كارلوزيس ، ومارياس ، وكارمن) ، وكل هذا يؤثر بالتأكيد على الكيان الثقافى لهؤلاء الأطفال .

فى إحدى المرات - كما يحدث عادة من وقت لآخر - اتصلت بى مجموعة من الشابات اللاتى ، كن على وشك الانتهاء من مرحلة إعداد المعلمين فى معهد بمدينة ساوبولو . وكانت المجموعة من بنات الطبقة المتوسطة يتمتعن بظروف حياتية جيدة ، وجاءت إحداهن لتصرح لى بأنهن خائفات ومهددات من احتمال أنهن إن آجلاً أو عاجلاً سيتولين التدريس فى فصل بإحدى مدارس المناطق الفقيرة ، وأردفت بالقول : " لقد انتهينا من شهادتنا دون أن نبحرنا أحد ما هى المناطق العشوائية الفقيرة ، ومن هم أطفالها وما أحوالهم ، وكل ما نعرفه عنها مصدره التلفزيون والجرائد ممن يشير إلى أنها مناطق عنف شديد ، وأن أطفالها يتحولون إلى مجرمين بسرعة " .

لقد تحدثت إلى هذه المجموعة من الشابات عن المناطق الفقيرة وكأنها أوجدت نفسها ، وليس على أنها نتاج كفاح مر من أجل البقاء فى سياق بنية اجتماعية غير عادلة ، أزاحت هؤلاء بعيداً عن الحياة . لقد تحدثت إلى هؤلاء الشابات عن هذه

المناطق وكأها في تقديرهن موئل لكل انحراف أخلاقي ، وموطن للأرواح الضائعة الهائمة ، وأن أطفالها يفتقدون الأمل إلى حد كبير .

وفي مواجهة كل ذلك ، لم أجد أى طريق يتلاءم على الأقل مع غضبي المشروع وتحرقى واستنكارى الحتمى غير التهيؤ لمعركة الديمقراطية السياسية ، التى يمكن أن ينتج عنها التحول الذى لا فكاك منه فى المجتمع البرازيلى ، والذى دونه سوف تسوء أوضاعه الحالية ، لا أن تتلاشى .

إن الأعمال العظيمة بالنسبة لى لا تتمثل فى بناء الأنفاق الضخمة التى تحترق المدينة من حى إلى حى ، ولا تلك الحدائق التى تكسوها الخضرة فى المناطق الجميلة من المدينة. ومع أن هذه الأشياء جميعها تعد منشآت عظيمة، إلا أن الأولوية هنا يجب أن تتجه إلى السعى نحو توفير مقومات الحياة الإنسانية لهؤلاء ، الذين حرموا الحياة الكريمة من فئات الطبقات الدنيا منذ (اختراع) دولة البرازيل .

ومن الناحية النظرية ، فإن استمرار إعداد المعلمين على التأمل النقدى لظروف الإطار الثقافى وظرف العمل وأنواع القيم فيه هو أمر لا يمكن الاستغناء عنه ؛ لأننا يجب أن نتأمل فى تأثير الصعوبات الاقتصادية علينا وعلى كيفية تعليمنا .

وهكذا .. فإن الإطار النظرى الذى يتم فيه حالياً إعداد المعلمين ، سوف لن يمكن الاستغناء فيه عن التفكير الناقد لما يجرى من تشكيل لسلوكنا وقيمنا وسياقنا الثقافى . كذلك علينا أن نفكر فيما تحدته المشكلات الاقتصادية من تأثيراتها الضاغطة ، وفى كيف أنها يمكن أن تكون عائقاً لنمو قدراتنا على التعليم ، وأن كل هذه الظروف تفتقد القوة لتجعلنا أغنياء . إن السياق النظرى فى إعداد المعلم لا يمكن أن ينتهى إلى مجرد القيام بعمل . والسياق الفعال هو الذى يرتبط فيه النظرى بمهمات وأعمال للتغيير، والتعلم الإعدادى للمعلم لا يمكن أن يتغير إلى إطار من العمل الخالص كما هو معتقد ولكن المطلوب هو إطار من المهام والمحاوِر التى تؤلف بين الممارسة والنظرية .

ثم إن العلاقة الجدلية بين الممارسة والنظرية يجب أن تظهر في الإطارات النظرية لإعداد مجموعات المعلمين ، فإن فكرة إعدادهم على أن يقولوا صباح الخير لطلابهم وتدريبهم كيفية تشكيل يد المتعلم وهو يرسم سطرًا ما ، دون معايشة جادة مع النظرية، هو خطأ علمي كالحطأ في إلقاء الخطابات والدروس النظرية ، دون اعتبار الواقع المادى سواء ما يرتبط بالطلاب أو بالطلاب والمعلمين وهذه المحاولات تفشل في احترام إطار الواقع ، والذي يشرح كيف أن مثل هذه الممارسات العملية قد تم التوصل إليها بذاتها . وتفشل هذه المحاولات في إدراك أن السياق النظرى ، مهما كان صحيحاً لا يستطيع أن يفرض نفسه على المعرفة المتولدة في ممارسة إطار آخر .

وكل هذا يتضمن مفهوماً مشوهاً لكل من الممارسة العملية والإطار النظرى لذلك فإن المواد المعدة للتدريس والتي أشرت إليها في رسالة "الكلمات الأولى " تقدم مثلاً جيداً على هذا الفهم المشوه " للممارسة والنظرية " ، وهى كلك مثال جيد على الكيفية ، التى يتصرف بها حتى المعلمين المتقدمين بطريقة تقليدية محافظة .

ومنذ أربعين عاماً عندما كنت مديراً لتعليم الخدمة الاجتماعية الصناعية فى برينمبوكو ، كانت إحدى المعارك التى خضتها مواجهة إصرار أولياء الأمور من الطبقة العاملة على أن يبدأ أولادهم وبناتهم تعلم القراءة والكتابة بطريقة الحروف الأبجدية ، وليس عن طريق الجملة التى تبين العلاقة بين الكلمات وبعضها ، وموقعها فى بنية التفكير المعبر عنه .

كانوا يقولون لى (إننا مع لوحة الحروف الأبجدية فى بيتنا كنا نقوم بتذكر الحروف وحفظها، ونتمكن من القراءة . ولقد تعلم أجدادنا بهذا الأسلوب كما تعلم آباؤنا أيضاً وكما تعلمنا نحن أيضاً ، فلماذا لا يتعلم أبنائنا وبناتنا بالطريقة نفسها) . لقد كان ذلك من خلال الاجتماعات والمناقشات التى أصبحت من خلالها مدرراً بأن الممارسة الاجتماعية التى نشارك فيها تولد معرفة مناظرة لها من ناحية ، كما أنها من الناحية الأخرى تدعونا إلى احترام المعرفة الناجمة عن الخبرة الكاملة . وأكثر من هذا فإن مقاومة ذلك الوعى لا يتحقق إلا من خلال المعرفة به ، وإنى لأذكر كيف تعلمت بالتدريج أن أكون متسقاً ، وأن الاتساق لا يعنى غض الطرف عن الأخطاء .

ومع الوقت وجدت نفسى مدافعاً عن حق العائلات في المشاركة في مناقشة السياسية التعليمية للمدرسة من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ملماً بأخطاء كبيرة للآباء مثل مطالبتهم بأن نعلم أبناءهم بدايةً عن طريق الحرف ، أو مطالبتهم بأن نكون قساة مع أبنائهم ، ومنهم من قال إن الضرب هو الذى يصنع الرجل ، وأن العقاب هو الذى يحفز الأطفال على التعلم .

ثم إن في هذه الأفكار أو بعضها كان يشترك المدرسون الذين تتغلغل في أعماقهم أيديولوجية السلطة ، ومثلهم مثل الآباء أو يقترب منهم ، يتولاهم الخوف والغضب من الحرية، خائفين من الطلبة ، منطوين على أنفسهم المغلقة، رافضة إدراك المتطلبات العديدة لعملية المعرفة الواعية ، وما يترتب عليها من المشاعر الجياشة والمكافآت التي قد يحصلون عليها من كونهم محرضين على السعادة .

لقد كانت رحلتى في مديرية الخدمات التعليمية مليئة بالتعلم ، تعلمت فيها مثلاً كيف أن تماسكى واتساقى لن يكون بالاستسلام للآباء الذين يطالبوننا بمثل تلك الأخطاء التي أشرت إليها ، ولا من خلال إسكاتهم بقوة خطابنا . ومن ناحية .. فإننا لا نستطيع أن نعترض عليهم بقول (لا) لكل شيء يطرحونه على اعتبار أنه ليس علمياً، كما أننا لا نستطيع من الناحية الأخرى أن نقبل كل شيء يطلبونه أو يدعوننا إليه في محاولة إعطائهم مثلاً للاحترام الديمقراطي . ومن ثم ينبغى أن لا يكون موقفنا فاتراً ، فنحن في حاجة إلى تأييد مبدأ الحق في مبادراتهم ، طالما أننا دعوناهم وأخبرناهم بأن من حقهم التعبير عن آرائهم ، وفي ممارسة النقد وتقديم الاقتراحات . بيد أنه من الناحية الأخرى نحن لا نستطيع أن نقبل كل شيء ، وأن نقول (نعم) لكل ما يعبرون عنه . والحل الصحيح هو سياسى تعليمى ، من خلال المناقشة الصريحة والحوار السياسى التربوى الصريح ، الذى نحاول فيه توضيح موقفنا في مواجهة طلباتهم .

وبعد فترة من الصمت تحللتها بعض الابتسامات المترددة وبعض الحركات من الأذرع التي دفعت بأحدهم كأنما يقول له (هلم تكلم) ، وإذا به يقول : إننى على الأقل

رأيت أطفالاً كثيرين قد بدأوا يتكلمون ، ولكنني لم أر أحداً منهم يبدأ كلامه بالحروف (أ ب ج د) لكنهم يقولون " مامى " ، " الخبز " ، " لا " ، " أنا أريد .. " . مما يعني انتصار طريقة الجملة في تعليم القراءة ، وفي هذا الصدد أود أن نفكر فيما يلي :

عندما كان كبار اليوم أطفالاً بالأمس ، بدأ الكلام والنطق لديهم بكلمات وليس بحروف ، فالطفل حين يصرخ (ماما) إنما يعنى (ماما أنا جائع) أو (ماما أنا مبلل) . وهى كلمات تعنى جملاً ، هذه الكلمات التى يبدأ بها الطفل تسمى مرحلة الجملة ذات الكلمة الواحدة، أى إنها جملة مع أنها ذات كلمة واحدة فقط . وإذا بدأنا جميعاً الحديث بهذه الطريقة ، فكيف إذاً يجب علينا عند تعلم الكتابة والقراءة أن نبدأ بتذكر الحروف ؟

ثم إنه لا أحد يعلم الآخر الكلام بصورة جادة منتظمة ، فالناس يتعلمون من خلال تفاعلهم مع العالم ، وفي بيوتهم ، وفي المجتمع ، وفي الشارع ، ومع الجيران ، وفي المدرسة ، فالكلام شىء مكتسب من المجتمع يحدث قبل الكتابة . وبعض ما يسمى بالكتابة يبدأ " شخبطة " ، ثم يعرف بعد ذلك بما اصطلاح عليه باسم (الكتابة) . ومثلما يكون من الضروري أن نتحدث لكى نتحدث ، فمن الضروري أن نكتب لكى نكتب ، فلا أحد يكتب إذا لم يتعلم الكتابة كما أنه لا أحد يتعلم المشى إلا إذا قام بالمشى .

ولهذا السبب ، يجب علينا أن نستثير الأطفال بقدر الإمكان نحو الكلام والكتابة . وتعتبر الشخبطة التى يقومون بها كتابةً يجب أن نمتدحها على أنها بداية الكتابة الصحيحة ؛ أى علينا أن نثنى على عملهم فيما يكتبون ، وفيما يحكون من قصص ، وفيما يخترعون أو يعيدون اختراعه من الحكايات الشعبية التى يسمعونها فى بيئتهم . وفي محادثات وحوارات مثل ما سبق ، كنا نحول دائرة الوالدين والمدرسين إلى سياق نظرى، نبحث فيه عن الأسباب التى أدت بالأمر والأشياء لتصبح كما هى عليه الآن .

وأتذكر بصفة خاصة محادثة مع إحدى الأمهات التى أخبرتنى بأن طفلها الذى عمره عشرة سنوات كائن " مستحيل " ، " غاضب " ، " غير مطيع " ، " شيطان " ،

"غير محتمل" ، وأن الشيء الوحيد الذى تستطيع أن تفعله معه هو أن تربطه فى شجرة فى الحديقة . قلت لها " لماذا لا تغيرى وسيلة العقاب قليلاً " ولا أقصد أن لا تعاقبيه ، فحتى ابنك الصغير سيفكر غداً أن هناك شيئاً غريباً قد يحدث إذا لم تفعل شيئاً فى عقابه . إنما أقصد أنه يجب أن تغيرى من أسلوب العقاب ، وعلىك أن تختارى طريقة يشعر من خلالها أنك ترفضين سلوكاً معيناً يقوم به، ولكن بطريقة أقل عنفاً . ومن الناحية الأخرى عليك أن تظهرى له أنك تحبينه ، وأن له واجبات وأن عليه حقوقاً .. له حق مثلاً فى اللعب ، ولكن عليه احترام الآخرين ، وله حق فى أن يشعر بمثل من المذاكرة ، ولكن عليه أن يكمل واجباته . أن ابنك " بيتر " هذا مثلنا جميعاً يحتاج إلى حدود ، وإلى أن يتعلم أن الإنسان لا يفعل كل ما يريد ، وأن الحياة الاجتماعية ستكون مستحيلة إذا لم تكن لها حدود .

وأتابع حوارى معها " ولكن ليس بعقاب (بيتر) يوماً أو توبيخه على أخطائه ستساعدينه على أن يكون أحسن حالاً . ولهذا فإنه من الضرورى أن تغيرى شيئاً فشيئاً وجوده باعتباره جزءاً من البيت ، ومن الضرورى أن تغيرى العلاقة معه تدريجياً حتى يمكن أن تتغير حياته أيضاً . ومن الضرورى كذلك أن تتغلبى على طريقة الحديث معه " .

هذا وقد ترك والد (بيتر) المنزل منذ عام ومضى والأم تعمل جاهدة ، تغسل الملابس فى خدمة أسرتين أو ثلاثة ، وتساعدنا أختها الصغيرة . وعندما أهيئنا المحادثة سلّمت على بحرارة ، وبدت عليها مسحة من الأمل. وبعد شهر كانت فى الصف الأول للجالسين أثناء اللقاء المدرسى بين أولياء الأمور والمدرسين، فقامت مندفعة فى منتصف اللقاء لتدافع عن ضرورة المعقولية فى العقاب وبأن يكون الآباء أكثر تسامحاً ، وأن يجرى تفاعل ودى بينهم وبين أطفالهم . ولكنها فى الوقت ذاته كانت تدرك الصعوبة التى تواجهها فى ذلك عادة عند التفكير فى صعوبات الحياة الواقعية . وعند الانصراف سلمت على ثانية ، وقالت " أشكرك فلم أعد استخدم عقاب الشجرة " ،

وابتسمت ، واثقة من نفسها ، وخرجت مع الأمهات الأخرى اللاتي غادرن المدرسة كذلك .

ومن ناحية السياق النظرى المادى ، فإن المدرسة لا تستطيع أن تتجاهل معرفة ما يحدث فى إطار الحياة المادية للتلاميذ وأسرههم ؛ إذ كيف تستطيع فهم صعوبات التلاميذ خلال عملية التعلم دون معرفة بما يسود أحوالهم فى المنزل ، بمدى اتصاهم بالكلمات المكتوبة فى إطارهم الثقافى الاجتماعى ؟

وتفاوتت فى ذلك حالة الطفل من أسرة مثقفة وهو ينظر إلى أبويه وهما يتعاملان بالقراءة والكتابة دوماً ، عن حالة الطفل الذى لا يقرأ والداه ، واللذين لا يشاهدان من خبرات المعرفة أكثر من خمسة أو ستة دعايات إلكترونية إلى جانب الإعلانات التجارية فى التلفزيون .

وعندما كنت سكرتيراً للتعليم فى حكومة (لوز اورندينا ١٩٨٩-١٩٩١) أثرت فى أحد اجتماعاتى المتعددة سؤالاً ، يتعلق بإمكانية أن يقوم بعض رجال الأعمال بالتعاون مع التوجهات التربوية لدائرة التعليم بتنفيذ مشروع (زراعة الجمل) فى الأماكن الهامة التى تسود الأمية بين معظم سكانها . وكان الهدف هو إثارة فضول الأطفال والكبار لما هو مكتوب ، وهذه الجمل كانت ذات صلة بالممارسات الاجتماعية للمنطقة وليست غريبة عن ثقافتها ، كما أنها أيضاً جمل تلقى موافقة المدارس فى المنطقة .

وعندما عشت وعملت فى "شيلي" كمنفى فى منطقة للإصلاح الزراعى، كانت جهود تعليم الكبار فيها متطورة ، شدهت مغتبطاً بمفاجأة أن الجمل والكلمات محفورة على جذوع الأشجار بواسطة أولئك المقبلين على التعلم . وقد أطلقت عالمة الاجتماع (ماريا ايدى ميريرا) على أولئك الفلاحين اسم (الفلاحون باذرو الكلمات) .

ولا أريد أن يعتقد أى شخص أن المجتمع الأمى اليوم سيصبح متعلماً غداً مجرد " أننا نزرع الكلمات والجمل " ؛ فالجتمتع يصبح متعلماً لأن هناك حاجة اجتماعية

وروحية لذلك ، بل ومادية أيضاً . ومن الممكن أيضاً أن نساعد الأطفال على القراءة والكتابة باستخدام بعض الأمور الفنية مثل أسلوب " الزراعة " للجمل ، قبل أن يحدث التغيير في قدراتهم للتعلم .

إن التدريب المستمر للمتعلم ، والذي يتضمن التأمل النقدي للممارسة يتأسس بالضبط على الحوار الجدلي بين النظرية والممارسة ، ومجموعات التدريب التي تتغلغل فيها الممارسة ؛ لكي توضح ما يتم إعطاؤه من تدريس إلى جانب عملية معرفة الكيفية التي تمت بها ما جرى إعطاؤه ، سوف تكون إذا تحققت ، طريقة للتدريب الحى المستمر . ونؤكد أولاً على أن مجموعات التدريب من وجهة النظر التقدمية لن تكون منتجة دون وجود القيادة الديمقراطية الواعية المتواضعة ، وذات الكفاءة العلمية ، والتي لديها قدر كبير من الفضول ، ودون هذه الخصائص القيادية .. فإن مجموعات التدريب لن يتم إدراكها للإطارات النظرية .

ثم إنه دون هذه القيادة ذات الكفاءة العلمية العالية التي تتفوق قدراتها على قدرات المجموعات فلن تنجح في الكشف عن فائدة الممارسة ، ولن تستطيع أن تنغمس فيها أو أن توضحها أو تدرك الأخطاء أو العراقيل الأيديولوجية التي تجعل من عملية التعرف أمراً عسيراً .

وهناك جانب آخر في عمل الجماعات المتدربة ، يتصل بالمعرفة التي يجب أن تُكوِّنها الجماعات عن نفسها ، وهى مشكلة هُوِيَّتِهِم التي دوها يصعب الالتقاء الجاد فيما بينهم . والواقع أنهم إذا لم يكتسبوا مثل هذه المعرفة بوضوح من خلال خبراتهم ، يكون من المتعذر عليهم أن يعرفوا بوضوح ماذا يريدون وكيف يتعاملون مع ما يريدون ، مما يعنى اهتمامهم بتساؤل (ماذا) على حساب (لماذا / السبب / وضد من) كما يميل تفضيلهم عادة (ماذا) (من / الشخص الذى يوظفونه فى تحسين معرفتهم) .

إن أعمال التفكير والدراسة للممارسة والعمل يودى بنا إلى استرجاع المفهوم السابق أو إلى معرفة ما سبق من معرفة ، مما يتضمن ويثير معرفة جديدة بصورة عامة .

وطالماً كنا نتعامل من خلال السياق النظرى مع مجموعات التدريب وفي توضيح الممارسة واكتشاف سوء الفهم أو المفاهيم الخاطئة ، فنحن بذلك نوسع بالضرورة آفاق المعرفة العلمية التى دونها لا نسلح أنفسنا للتغلب على الأخطاء المرتكبة أو المدركة .

وهذا التوسع يتولد من محاولة التجاوب مع الحاجة التى دعتنا أول الأمر إلى التأمل فى الممارسة ، وسوف يؤدى مثل هذا إلى استمرار التوسع فى قدرة عدسات الرؤية . وتوضح هذه النقطة هنا ما يدعونا إلى الحاجة عن كشف نقطة أخرى تتصل بدينامية عملية التفكير فى الممارسة ، ولهذا السبب .. فإن التفكير فى الممارسة تؤدى إلى أن يفكر المرء بشكل أفضل ، وأن يمارس بشكل أفضل فى الوقت ذاته .

وبهذا المعنى .. فإن العمل العقلى فى السياق النظرى يتطلب التزود الفعلى بكل مطالب موضوع الدراسة الكاملة ، التى فى أثنائها لا يمكن إلغاء القراءة النقدية للعالم ، وهو ما يتضمن قراءة وكتابة الكلمات ، وقراءة وكتابة النصوص بشكل كامل . أضف إلى ذلك إدراك أثرها فى بنية السياق الثقافى بحيث إذا كان موقعها صحيحاً فى هذا السياق ، لم يعد مناسباً أن تقول : أنا لا أعرف كيف أكتب . أنا لا أعرف كيف أقرأ .

وأود هنا أن أتابع بالتركيز أهمية قراءة الجرائد والمجلات وبناء علاقات بين التعليقات على الوقائع والأحداث ، وعلى الحكم السيئ وعلى الحياة المدرسية ذاتها .. كذلك أود التركيز على أهمية جمهور المشاهدين للبرامج التليفزيونية واستخدام شرائط الفيديو فى التسجيل الهادف لبعض الممارسات ، أو تسجيل حتى جلسة واحدة من جلسات مجموعة التدريب . ولعله لن نجد هناك مصدراً أفضل من تلك الوسائط ، يعيننا على التفكير فى الممارسات ، وعلى التحسين فى القيام بها من أجل إنتاج مزيد من المعرفة ، ومن ثم لا يمكن إغفال الاستعانة بها .

كذلك من الضرورى من أجل أن تتجنب أى مجموعات دراسية المعاناة من مخاطرة النظرة الضيقة جداً فى الإطارات المعرفية المتخصصة ، أن تنظم اجتماعات لمناهج

الدراسات البيئية ، بأن تنضم إليها مجموعة من تخصص آخر ، وتتم المناقشة بين المجموعتين في موضوع معين ، حيث تتلاقح مختلف المناظير في دراسة ذلك الموضوع النظرى .

ومن الممارسات الجيدة أن يتم تبادل شرائط الفيديو بين مجموعات التدريب المختلفة بما فيها شرائط فيديو التدريب الخاص بالمجموعات نفسها ، فمثلاً ترسل المجموعة " أ " شريط فيديو للمجموعة " ب " فيه تسجيل لإحدى جلسات الدراسة بها ، وتتلقى المجموعة " ب " شريطاً آخر في الموضوع نفسه من مجموعة أخرى ، ومن ثم تقوم المجموعتان بتسجيل ردود أفعال كل منهما على أنشطة الآخرين ، وبذلك تتسع خبرة التفكير بشكل كبير غير عادى .

وفي تزانيا بأفريقيا الاستوائية كانت لى خبرة ذات قيمة كبيرة ، استفدتها مما قام به أحد المخرجين الكنديين بتصوير فيلم سينمائى لمناقشة بين جماعة من الفلاحين وأحد المرشدين الزراعيين حول محصول الموسم الزراعى القادم . وعند عرض الفيلم على مجموعة أخرى فى قرية تبعد حوالى ١٠٠ كم ، قام صاحبنا بتصوير الآراء التى دارت حول المناقشة السابقة . ثم عاد فيما بعد إلى المجموعة الأولى ، وعرض عليها ردود أفعال أصدقائهم الذين لم يتعرفوا عليهم قبل العرض . وبهذه الطريقة قلل المسافة بين البيئتين ، وأضاف معرفة جديدة إلى أحوال المجتمع ، وأقام علاقات بين المجموعتين ، كما أصبح ممكناً تفهم الواقع الوطنى بمستوى أعلى من الوعى الناقد . وفى فترة بسيطة أخرجنى هذا المخرج أنه غطى جزءاً كبيراً من أجزاء تزانيا بهذه الصورة ، رغم ما خلقت له من مشاكل معينة ، وبخاصة فى تصوير المناطق الأكثر تحللاً .

إن تمكين الناس من قراءة العالم بشكل نقدى هو تحد كبير وممارسة غير مريحة لأولئك ، الذين يؤسسون قوتهم على براءة من يمكن استغلالهم . إننى ممن يقومون بتلك القراءة ، ومن ثم فإن ممارستى النظرية تزداد وضوحاً .